

الإمام الجافظ ابن عساكر

محمود ماضي

أستاذ مشارك بكليتي الآداب جامعة الزقازيق والدعوة بالمدينة المنورة

١ - حياته

هو تقي الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عبدالله بن الحسين بن عساكر (١) الشافعي . ولد في مستهل سنة تسع وتسعين وأربع مئة . في مدينة دمشق .
عني به والده وأخوه في صغره ، فسمع الحديث وعمره ست سنين ، وعدة شيوخه ألف وثلاث مئة شيخ ؛ منهم الشيخ أبو الحسن بن قبيس ، والشيخ أبو الفتح المختار بن عبد الحميد ، والشيخ الخطيب الطوسي (٢) .
وقد أكثر في طلب الحديث من الترحال والأسفار ، وجاز المدن والأقاليم والأمصار ، وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من الحفاظ نسخاً واستنساخاً (٣) . وكان قد تفقه في حدائته بدمشق على الفقيه أبي الحسن السلمي .. ولم يلبث أن غادرها إلى بغداد عام عشرين فلزم بها التفقه وسماع الدروس بالمدرسة النظامية وقرأ الخلاف والنحو ، وسمع فيها أبا القاسم بن الحصين وأبا الحسين الدينوري ... وقاضي المارستان محمد بن عبد الباقي الأنصاري ...
وقد قصد مكة فسمع عبدالله بن محمد الغزالي ورزين بن معاوية العبدري ، ثم انتقل إلى المدينة فسمع بها من أبي الفتوح عبد الخلاق ، وتوجه إلى الكوفة فسمع عمر ابن إبراهيم الزيني ، وعاد إلى بغداد ثم إلى دمشق ، ورحل إلى خراسان ونيسابور ، ثم عاد إلى دمشق يحدث ويملي ويصنف إلى آخر عمره . وقد عرف إلى جانب هذا الجهد المتواصل لتحصيل العلم ، عرف بخلق متين فلم يزل طول عمره مواظباً على صلاة الجماعة ، ملازماً لقراءة القرآن ، محاسباً نفسه على ساعة تذهب في غير طاعة الله ، إلى أن توفي في شهر رجب الفرد سنة إحدى وسبعين وخمس مئة ودفن بدمشق (٤) .

ومن يعلمه وقد كان الشافعي يحسنه ويفهمه وقد تكلم مع غير واحد ممن ابتدع وأقام الحجة عليه حتى انقطع (٥) .
وهو يذب عن المذهب وقد ألف في ذلك كتابه الشهير : «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» .

كما جاء في طبقات الشافعية ، قول صاحب الطبقات «ومن كلام ابن عساكر حافظ هذه الأمة الثقة الثبت : هل من الفقهاء الخفية والمالكية والشافعية إلا موافق للأشعري ومنتسب إليه ، وراض بحميد سعيه في دين الله مثل بكثرة العلم عليه ، غير شرذمة قليلة تضرع التشبيه ، وتعادى كل موحد يعتقد التنزيه أو تضاهي قول المعتزلة في ذمه ، وتباهي بإظهار جهلها بقدره وسعة علمه» (٦) .

٢ - أهم آرائه وأفكاره واتجاهاته الفكرية

من المعروف أن ابن عساكر شافعي المذهب أشعري الاعتقاد لذلك نراه يقول : «إن الأشعرية أعيان السنة ونصار الشريعة انتصروا للرد على المبتدعة من القدرية والرافضة وغيرهم فمن طعن فيهم فقد طعن في أهل السنة» (٧) .
ويدفع عن الأشعري الذم لكونهم متكلمين فيشرح مقصور الشافعي حين قال : «لأن يبتلى المرء بكل ما نهى الله عنه سوى الشرك خير له من الكلام . . . فيقول : والكلام المذموم كلام أصحاب الأهواء وما يزخره أرباب البدع المردية ، فأما الكلام الموافق للكتاب والسنة الموضح لحقائق الأصول عند ظهور الفتنة فهو محمود عند العلماء

ذلك (٨) . ذهب ابن عساكر إلى أن الأشاعرة يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه بلا تكييف حتى سمو بالبلاكمة . والله تعالى مستو على العرش دون تحيز أو أن تحده الجهات . يقول :

رب على العرش استوى قهراً وينزل لا بنقلة
لا للتحيز كي تكو ن لذاته جهة مقلّة
ويرى ويسمع لا بجأ رحة ولا إنسان مقلّة (٩)

٣ - آثاره

كدأب من يهب حياته للعلم والانقطاع للدرس والتأليف ، فقد صنف ابن عساكر عدة تصانيف ، ومن أهم مؤلفاته .

١ - «تاريخ دمشق الكبير» وقد جمعه في ثمانين مجلداً كبيراً . وقد قام بتحقيقه السيد / صلاح الدين المنجد ، وقد قام المجمع العلمي بدمشق بالإشراف على نشر الأصل ، فطبع المجلد الأول ونصف الثاني بدمشق سنة ١٣٧١هـ / ١٩٥١م . ويعرف بتاريخ «ابن عساكر وقد اختصره الشيخ «عبدالقادر بدران» وذلك بحذف الأسانيد والمكررات ، وسمى المختصر «تهذيب تاريخ ابن عساكر» (١٠) . وقد طبع منه سبع أجزاء ولا تزال بقية التهذيب محفوظة (١١) ، وقيل إنه أبان في هذا الكتاب عما لم يكتمه غيره ، وإنما عجز عنه ؛ ومن طالع هذا الكتاب عرف إلى أية مرتبة وصل هذا الإمام (١٢) والكتاب .

وهو من أهم تصانيف ابن عساكر في التاريخ ، وقد جمع فيه كل تراجم الرجال الذين لهم صلة بمدينة دمشق كما فعل الخطيب البغدادي في مؤلفه تاريخ بغداد (١٣) . ولابن عساكر مؤلفات كثيرة منها :

٢ - «الإشراف إلى معرفة الأطراف» في الحديث . وقد طبع في ثلاثة مجلدات .

٣ - «تبين كذب المفترى في ما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» .

ولقد نقلت لنا كتب الفرق كالمثل والنحل للشهرستاني ، والفصل لابن حزم ، والفرق بين الفرق للبغدادى أقوالاً كثيرة عن المشبهة والمجسمة ، فذهب البعض منهم إلى أن الله تعالى : جسم . وذهب غيرهم إلى وصفه كما يصفون الأجسام من التركيب والتأليف من الأعضاء والجوارح ، وينتهون من هذا كله إلى المماثلة والمشابهة ؛ تعالى الله عن ذلك .

وعلى الطرف الآخر جاء رأي المعتزلة نافياً للصفات حتى قيل إنهم يصفون عدماً . ثم جاء رأي الأشعري ومن ثم ابن عساكر مبين لكل من المشبهة والمجسمة .

يقول ابن عساكر : «إن الأشعري والماتريدي هم العدل الوسط بين المعتزلة والحشوية لا ابتعدوا عن النقل كما فعل المعتزلة ولا عن العقل كعادة الحشوية» .

ثم يقول :

قل للمشبهة الذين تجاوزوا

حجج العقول بكل قول منكر

يا ويلكم قستم صفات إلهكم

بصفاتكم هذا قياس الأخسر

ويرى ابن عساكر - متابعاً للأشعري - أن الله لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئاً .

من قال إن الله يشبه خلقه

كانت مقالته مقالة مفتر

لله سمع لا كأسماع الورى

ويد وعين لا كعين المحجر

وإذا كانت النزعة العقلية لدى المعتزلة أدت بهم إلى نفي رؤية المؤمنين ربهم ؛ فإن الأشاعرة ذهبوا إلى أن الرؤية ممكنة ، وقد ورد القرآن الكريم مؤيداً ذلك .

يقول ابن عساكر :

حتماً يراه المؤمنون وليس ذا

جسم ولا عرض ولا بالجواهر (١٤)

ولما أول المعتزلة آيات الاستواء بالاستيلاء والاقتدار وأن العقل يقتضيه من حيث دل على أنه تعالى قديم ولو كان جسمًا يجوز عليه الأماكن لكان محدثاً ، تعالى الله عن

٤ - مكانته العلمية والأدبية

لقب ابن عساكر بإمام أهل الحديث في زمانه وناصر السنة وخادمها وقامع جند الشيطان بعساكر اجتهاده ، لما قدم من مجهودات عظيمة . وهذا الكلام ليس من قبيل التحيز أو الإعجاب وإنما هو بعض مما أقر به أهل العلم والفضل .

قال عنه شيخه الخطيب أبو الفضل الطوسي : «مانع من يستحق هذا اللقب اليوم سواء ، يعني لفظة الحافظ وكان يسمى في بغداد شعلة نار ، من توقده وذكره وحسن إدراكه» (١٥) .

وقال ابن النجار : «هو إمام المحدثين في وقته ، ومن انتهت إليه الرياسة في الحفظ والإتقان والمعرفة التامة بعلوم الحديث ، والثقة والنبيل ، وحسن التصنيف والتجويد» (١٥) .

وكتب الحافظ معمر بن الفأخر في معجمه : «كان - أي ابن عساكر - أحفظ من رأيت من طلبة الحديث ، وكان شيخنا إسماعيل بن محمد الإمام يفضل على جميع من لقيناهم . . . ما رأيت شاباً أروع ولا أحفظ ولا أتقن منه وكان مع ذلك فقيهاً أديباً سنياً جزاه الله خيراً . . .» (١٦) .

قال عنه الحافظ أبو سعد السمعاني في تاريخه : «هو كثير العلم غزير الفضل حافظ ثقة متقن دين خير حسن السمات جمع بين معرفة المتون والأسانيد» (١٧) .

قال عن نفسه : « . . . لما عازمت على التحديث والله المطلع أنه ما حملني على ذلك حب الرياسة والتقدم ، بل قلت : متى أروي كل ما قد سمعته وأي فائدة في كوني أخلفه بعدي صحائف ؟ . فاستخرت الله وأستاذت أعيان شيوخني . . . وطفئت عليهم فكل قال : ومن أحق بهذا منك» (١٨) .

هؤلاء بعض من شهد لابن عساكر بالإمامة والتقدم والتمكن من زمام الحديث والسنة والفقه . وختاماً أؤكد أن هذا العلم يحتاج منا إلى مزيد عناية وبذل الجهود لإحياء تراثه .

وهو كتاب خاص بطبقات الأشاعرة ، فضلاً عن الذب عن الأشعري والأشاعرة والماتريدي . وقال فيه صاحب الطبقات الكبرى «كل سني لا يكون عنده كتاب التبيين لابن عساكر فليس من أمر نفسه على بصيرة» .

٤ - «كشف المغطى في فضل الموطأ» طبع .
٥ - «تبيين الامتنان في الأمر بالاختنان» طبع .
٦ - «تبيين الوهم والتخليط فيما أخرجه أبو داود من حديث الأبيط» جزء واحد .

٧ - «أربعون حديثاً من أربعين شيخاً من أربعين مدينة» .
٨ - «الجواب المبسوط لمن ذكر حديث الهبوط» جزء واحد .
٩ - «معجم الصحابة» أو (المعجم) في اثني عشر جزءاً ، وهو خلاصة عن مشاهير الرجال وخاصة الشافعية ، ولهذا المقتطف ذيل هو «كتاب الوهم» لمحمد بن عبد الواحد المقدسي المتوفى عام ٦٤٣هـ (١٢٤٥م) .

١٠ - «معجم من سمع منه من النسوان» .
١١ - «تهذيب الملتبس من عوامل مالك ابن أنس» .
١٢ - «ذكر البيان عن فضل كتابة القرآن» جزء واحد .
١٣ - «معجم أسماء القرى والأبصار» .
١٤ - «معجم الشيوخ والنبلاء» مخطوط .
١٥ - الأمايلي : مثل : «مجلس نفى التشبيه» «مجلس التتيرة» «مجلس التوبة» .

١٦ - «مناقب الشبان» في خمسة عشر جزءاً .
١٧ - «فضائل أصحاب الحديث» في أحد عشر جزءاً .
١٨ - فضل الجمعة .

وقد حصر صاحب مقدمة التبيين مصنفاته التي أتمها في ٨٤ مصنفًا ، غير ما لم يتم من تصانيفه وهي :
١ - «الإبدال» ولو تم كان مقداره ٢٠٠ جزء .

٢ - «ذم الرافضة» .
٣ - «الصفات» .
٤ - فضل الجهاد .
٥ - فضل مكة .
٦ - فضل المدينة (١٩) .

المواامش

- ١ - ليس في أجداده من اسمه عساكر ، وإنما هي تسمية اشتهرت عليهم في بيتهم ، ولعله من قبل أمهات بعضهم (للمزيد - انظر مقدمة تبين كذب المفتري لابن عساكر - مطبعة التوفيق بدمشق سنة ١٣٤٧هـ) .
- ٢ - ابن كثير : البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٩٤ - دار الفكر العربي - بيروت - بدون تاريخ .
- ٣ - السبكي : طبقات الشافعية ج ٧ ص ٢١٦ - ٢٢٣ - الطبعة الأولى - الحلبي بمصر .
- والشيخ عبدالقادر بدران : تهذيب تاريخ دمشق الكبير ص ٦ ، ٧ - دار المسيرة - بيروت - ط ٢ ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م . وابن كثير : البداية والنهاية - مصدر سابق .
- ومقدمة تبين كذب المفتري لابن عساكر - مصدر سابق .
- دائرة المعارف الإسلامية م ١ - دار الفكر .
- سير أعلام النبلاء للذهبي ص ٥٥٥ ، ٥٥٦ ط ١ ، ١٩٨٥ - مؤسسة الرسالة .
- ٤ - تبين كذب المفتري ص ٣٣٢ - مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧هـ .
- ٥ - المرجع السابق ص ٣٣٩ .
- ٦ - السبكي : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٥٩ .
- ٧ - ابن عساكر : تبين كذب المفتري ص ٤٣٦ .
- ٨ - القاضي عبدالجبار : متشابه القرآن ص ٣٥١ تحقيق د / عدنان زرزق - دار التراث بالقاهرة .
- ٩ - محمود ماضي : منهج ابن القيم في أصول الدين ص ٤٨ - الطبعة الثانية ١٩٩١ - دار الإيمان
- بالإسكندرية .
- ١٠ - غير أني وجدت التهذيب باسم «تهذيب تاريخ دمشق الكبير» وهو طبعة - دار المسيرة بيروت . وفي طبقات الشافعية ج ٧ ص ٢١٦ باسم «تاريخ الشام» .
- ١١ - خير الدين الزركلي : الأعلام - قاموس معجم - مجلد ٤ - دار العلم للملايين - بيروت - طبعة ٥ ، ١٩٨٠م .
- ١٢ - السبكي : طبقات الشافعية - مصدر سابق ص ٢١٦ .
- ومعجم الأدباء . ياقوت الحموي - مجلد ٧ ص ٧٣ - دار إحياء التراث العربي .
- ١٣ - انظر : دائرة المعارف الإسلامية م ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ - دار الفكر - مقدمة التبين ص ٣ ، ٦ - مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧هـ - ابن خلكان ١ / ٣٣٥ ، ومفتاح السعادة ١ / ٢١٦ ثم ٢ : ٢١١ . - البداية والنهاية لابن كثير ١٢ : ٢٩٤ .
- ١٤ - انظر : دائرة المعارف الإسلامية . المصدر السابق . ومقدمة التبين ص ٣ - ٦ ، ابن خلكان ١ : ٣٣٥ ، مفتاح السعادة : ١ / ٢١٦ ، البداية والنهاية لابن كثير ١٢ / ٢٩٤ .
- ١٥ - السبكي : طبقات الشافعية - مصدر سابق .
- ١٦ - مقدمة كتاب - تبين كذب المفتري ص : ح - مصدر سابق .
- ١٧ - المسعودي : شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .
- ١٨ - سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢٠ ص ٥٦٥ - مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٥م .

